



تقع كلمة "أيام الأحداث" مسامعي منذ أن كنتُ طفلاً، فأمي مشتاقة لخالي مصطفى المعتقل في سجن تدمر منذ أيام الأحداث، وجدتي لا تكف عن الدعاء لعمي عمر المعتقل في سجن تدمر منذ أيام الأحداث، وأبن عمتي طارق بلا أب، فوالده في سجن تدمر منذ أيام الأحداث.

وكانت لأبي مغامرات كثيرة أيام الأحداث أو "أيام الثمانينيات" يتذكرها ويحكيها لرفاقه، و"أيام الأحداث" هو التعبير المذهب عن تلك الحقبة الدموية والتي لا يُحيّد استخدام عبارات مباشرة لوصفها أمام طفل قد يزيل بها لسانه أمام الآخرين. بعد 12 عاماً من اعتقالهم أُفرج عن عمي وخالي، وبعدها بسنوات عن زوج عمتي، وطبعاً عن المئات من أبناء قريتي ومدينتي بانياس والبيضا، وكانوا اعتقلوا جميعاً أيام الأحداث، أما عمي وخالي فقد كانوا طفلين في المدرسة الإعدادية، ومنها اقتدوا مباشرة إلى السجن، وبحسب خالي فلم يكونا يعرفان شيئاً عن "الإخوان المسلمين"، التهمة الجاهزة لتلك الحقبة والتي أودع بسببها عشرات الآلاف في السجون بلا محاكمة.

وأنا أكبر، كان يكبر الشغف في داخلي لأعرف أكثر عن أيام الأحداث، لم يكن في ذهني شيء عن تلك الحقبة سوى صور مرؤعة من المجازر: مجازر في حماة، ومجازر في سجن تدمر، مدفعية تدك حماة، ورشاشات تدك صدور معتقلين عُزل في سجن تدمر.. وللحقيقة، فإلى اليوم لم يُروَ شغفي بمعرفة التفاصيل سوى بعض ما نشر على الواقع الحقيقية التي على أهمية

ما فيها تردد أن الحقيقة أكثر وحشية بكثير مما نشر.

ما أشبه اليوم بالأمس:

اليوم، وبعد ثلاثين عاماً على مجرزة حماة لم أعد شغوفاً بمعرفة تفاصيل تلك الحقبة، فأنا اليوم أعيشها كما يعيشها كل الشعب السوري اليوم، وكما عاشها أهل حماة أيام الثمانينيات لكن بصورة أخف، فعشرات القرى والبلدات والمدن السورية عاشت بالأشهر الأخيرة حملات عسكرية ببربرية شبيهة في بعض أوجهها بما حُكِي عن مجازر حماة، الإذلال ذاته.. القتل العشوائي ذاته.. النهير والتجويع المقصود ذاته.. المقابر الجماعية ذاتها.. حملات الاعتقالات الخرافية ذاتها.. التدمير للقرى والمساجد والكنائس ذاته.. بل حتى التبريرات ذاتها!

عزاء حماة بعد ثلاثين عاماً أن الشعب السوري قرر نفخ غبار نسيانها أو السكوت عنها، قرر الشعب السوري أن يعيش الحقبة لكي يستعيد بلدته جاداً هذه المرة، عزاء حماة أن كل بلدة في سوريا استحال إلى حماة، وعزائها؛ أن العدالة التي نامت عن قضيتها مدة 30 عاماً قد تستيقظ قريباً.. !

أول درس في الثورة:

حدث وأنا يافع أن وقع بين يديّ ديوان شعري يجمع بين طياته عدة قصائد شعرية لشعراء إسلاميين معظمهم مصريين، المشترك بين القصائد أنها تتحدث عن محنتهم في فترة الثمانينيات.. فحفظت منها وأنا يافع قصيدة ما زلت أحفظ مطلعها وبعض أبياتها وكانت بعنوان "رسالة في ليلة التنفيذ"، وهي لسيد الرفاعي أو هاشم الرفاعي، وهي رسالة على لسان ثائر حُكم عليه بالإعدام، وطبعاً ليس من المفارقة أن الشاعر الذي جادت قريحته بهذه القصيدة الملحمية قد استشهد هو الآخر بعمر 24 سنة فقط على يد أعدائه السياسيين.

تتمتع هذه القصيدة بحس إنساني منقطع النظير، أثرت بي تأثيراً بالغاً حتى جعلتني متعاطفاً مع الإسلاميين في تلك الفترة حد الانحياز.. وكانت أول درس آخره في التمرد لصالح الإنسان، وأول درس في الثورة على الظلم والطغاة.. وفي الحقيقة أنّ نفسي حدثني غيرَ مرة أن أنشر هذه القصيدة في مدونتي، ولكن التردد خوفاً من إلصاق تهمة "الإخونجي" بي كانت تمنعني.. لكن هذا يومها .. فإليكم:

رسالة في ليلة التنفيذ

الشهيد الشاب: هاشم الرفاعي

أبتاه ماذا قد يخطُّ بناني** والحبُّ والجلادُ ينتظراني
هذا الكتابُ إليكَ من زنزانة*** مَقْرُورَةٌ صَخْرَةُ الجُدرانِ
لَمْ تَبْقَ إِلَّا لِيلَةُ أَحْيَا بِهَا *** وَأَحْسَّ أَنَّ ظلَامَهَا أَكْفَاني
سَتَمُرُّ يَا أَبْتاه لستُ أَشْكُ فِي *** هَذَا وَتَحْمِلُ بَعْدَهَا جُثْمَانِي
اللَّيلُ مِنْ حَوْلِي هُدُوءُ قَاتِلٌ *** وَالذُّكْرِيَاتُ تَمُورُ فِي وِجْدَانِي
وَيَهُدُنِي أَلَمِي فَأَنْشُدُ رَاحَتِي *** فِي بِضُعْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ
وَالنَّفْسُ بَيْنَ جَوَانِحِي شَفَافَةُ *** دَبَّ الْخُشُوعُ بِهَا فَهَرَّ كَيَانِي
قَدْ عِشْتُ أُوْمِنُ بِالْإِلَهِ وَلَمْ أَدْقُ *** إِلَّا أَخِيرًا لَذَّةُ الإِيمَانِ
شَكْرًا لَهُمْ أَنَا لَا أُرِيدُ طَعَامَهُم *** فَلَيَرْفَعُوهُ فَلَسْتُ بِالْجَوْعَانِ
هَذَا الطَّعَامُ الْمَرُّ مَا صَنَعْتَهُ لِي *** أَمِي وَلَا وَضَعُوهُ فَوْقَ خَوَانِ
كَلَا وَلَمْ يَشْهُدْهُ - يَا أَبْتِي - مَعِي *** أَخْوَانَ جَاءَهُ يَسْتَبَقُانِ

مدوا إلي به يداً مصبوغة *** بدمي وهذه غاية الإحسان!
والصمتُ يقطعهُ رنينُ سلاسلِ *** عبّثتْ بهنَّ أصابعُ السجَانِ
ما بينَ آونةٍ تمرُّ وأختها *** يرنو إليَّ بمقلتِي شيطانِ
من كُوَّةٍ بالبابِ يرقبُ صَيْدَه *** ويعودُ في أمنٍ إلى الدورانِ
أنا لا أحِسُّ يائِي حَقْدٌ نحوه *** ما زالَ جَنِي فَتَمَسَّهُ أضفاني
هو طَيْبُ الأخلاقِ مثلكَ يا أبي *** لم يَدُّ في ظمآنٍ إلى العدوانِ
لَكَنَّهُ إِنْ نَامَ عَنِ لحظةً *** ذاقَ العيالُ مَرارةَ الحرمانِ
فلَرِيماً - وهو المُرْقِعُ سحنةً - *** لو كانَ مثلي شاعراً لرثاني
أو عادَ - منْ يدرِي؟ - إلى أولادِه *** يوماً تذَكَّرَ صُورتي فبكاني
وعلَى الجدارِ الصُّلْبِ نافذةً بها *** معنى الحياةِ غليظةُ الفُضْبانِ
قد طَالَما شارفتُها مُتَامِلاً *** في التَّأثِيرِينَ على الأسى اليقطانِ
فَأَرَى وجوماً كالضَّبابِ مُصَوِّراً *** ما في قُلوبِ النَّاسِ مِنْ غَلَانِ
نَفْسُ الشُّعورِ لَدِيِ الجميعِ وإنْ هُمُوا *** كَتَمُوا وَكَانَ المَوْتُ في إعلاني
ويَدُورُ هَمْسٌ في الجوَانِحِ: ما الَّذِي *** بِالتَّوْرَةِ الْحَمْفَاءِ قدْ أَغْرَانِي؛
أَوْ لَمْ يَكُنْ خَيْرًا لِنفسيِّ أَنْ أَرَى *** مثلَ الْجُمْوِيِّ أَسِيرُ في إِذْعَانِ؟!
ما ضَرَّنِي لَوْ قَدْ سَكَتْ وَكَلَّما *** غَلَبَ الأسى بالغُثُّ في الكِتْمَانِ؛
هذا دَمِي سَيَسِيلُ يَجْرِي مُطْفَئًا *** ما ثَارَ في جَنِيِّ مِنْ نِيرَانِ
وَفَوَادِيَ المَوَارِ في نَبَضَاتِهِ *** سَيَكُفُّ في غَدِهِ عنِ الْخَفْقَانِ
وَالظُّلْمُ باقٍ لَنْ يُحَاطِ قَيْدَهُ *** مَوْتِي وَلَنْ يُودِي بِهِ قُرْبَانِي
وَيَسِيرُ رَكْبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَضِيرُهُ *** شَاهٌ إِذَا أَجْتَثَتْ مِنَ الْقِطْعَانِ
هذا حَدِيثُ النَّفْسِ حينَ تَشُفُّ عَنْ *** بَشَرِّيَّتِي وَتَمُورُ بَعْدَ تَوَانِ
وَتَقُولُ لي: إِنَّ الْحَيَاةَ لِغاِيَةٍ *** أَسْمَى مِنَ التَّصْفِيقِ لِلْطَّغْيَانِ
أَنفَاسُكَ الْحَرَى وإنْ هِيَ أَخْمَدَتْ *** سَتَظْلُّ تَعْمُرُ أَفْقَهُمْ بِدُخَانِ
وَقُرُونُ جَسْمِكَ وَهُوَ تَحْتَ سِيَاطِهِمْ *** قَسَمَاتُ صُبْحٍ يَتَقَبَّلُهُ الْجَانِي
دَمْعُ السَّجَاجِينِ هُنَاكَ فِي أَغْلَالِهِ *** وَدَمُ الشَّهِيدِ هُنَا سَيَلْتَقِيَانِ
حَتَّى إِذَا مَا أَفْعَمْتُ بِهِمَا الرُّبَا *** لم يَبْقَ غَيْرَ تَرْمُدِ الْفَيَاضَانِ
وَمَنِ الْعَوَاصِفِ مَا يَكُونُ هُبُوبُهَا *** بَعْدَ الْهُدوءِ وَرَاحَةِ الرُّبَّانِ
إِنَّ احْتِدَامَ النَّارِ في جَوْفِ الْثَّرَى *** أَمْرٌ يُثِيرُ حَفِيَّةَ الْبُرْكَانِ
وَتَتَابُعُ الْقَطَرَاتِ يَنْزِلُ بَعْدُهُ *** سَيْلٌ يَلِيهِ تَدَقُّ الطُّوفَانِ
فَيَمُوجُ يَقْتَلُ الطُّغَاةَ مُزْجَرًا *** أَقْوَى مِنَ الْجَبَرُوتِ وَالسُّلْطَانِ
أَنَا لَسْتُ أَذْرِي هَلْ سَنُذَكِّرُ قِصَّتِي؟ *** أَمْ سَوْفَ يَعْرُوها دُجَى النِّسْيَانِ؟
أَمْ أَنِّي سَأَكُونُ فِي تَارِيَخِنَا *** مُتَامِراً أَمْ هَادِمَ الْأَوْثَانِ؟
كُلُّ الَّذِي أَذْرِيَهُ أَنْ تَجْرُعِي *** كَأسَ الْمَذَلَّةِ لَيْسَ فِي إِمْكَانِي
لَوْ لَمْ أَكُنْ فِي ثَوْرَاتِي مُتَطَلِّبًا *** غَيْرَ الضِّيَاءِ لَمْتَيْ لِكَفَانِي

أَهْوَى الْحَيَاةَ كَرِيمَةً لَا قَيْدٌ.. لَا *** إِرْهَابٍ.. لَا أُسْتِخْفَافٌ بِالإِنْسَانِ
فَإِذَا سَقَطْتُ سَقَطْتُ أَحْمَلُ عَزَّتِي *** يَغْلِي دَمُ الْأَحْرَارِ فِي شَرِيَانِي
أَبْتَاهُ إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ عَلَى الدُّنْيَا *** وَأَضَاءَ نُورُ الشَّمْسِ كُلَّ مَكَانٍ
وَاسْتَقْبَلُ الْعُصْفُورُ بَيْنَ غُصُونِهِ *** يَوْمًا جَدِيدًا مُشْرِقَ الْأَلْوَانِ
وَسَمِعْتَ أَنْغَامَ التَّفَاؤلِ ثَرَّةً *** تَجْرِي عَلَى فَمِي بَائِعُ الْأَلْبَانِ
وَأَتَى يَدُقُّ - كَمَا تَعَوَّدَ - بَابَنَا *** سَيْدُقُ بَابَ السِّجْنِ جَلَّانِ
وَأَكُونُ بَعْدَ هُنْيَةً مُتَأْرِجِحًا *** فِي الْحَبْلِ مَشْدُودًا إِلَى الْعِيَدَانِ
لِيَكُنْ عَزَاؤَكَ أَنَّ هَذَا الْحَبْلُ مَا *** صَنَعْتُهُ فِي هَذِي الرُّبُوعِ يَدَانِ
نَسْجُوهُ فِي بَلْدٍ يَشْعُ حَضَارَةً *** وَتُضَاءُ مِنْهُ مَشَاعِلُ الْعِرْفَانِ
أَوْ هَكُذا زَعَمُوا! وَجِيءَ بِهِ إِلَى *** بَلْدِي الْجَرَيْحِ عَلَى يَدِ الْأَعْوَانِ
أَنَا لَا أُرِيدُكَ أَنْ تَعِيشَ مُحَطَّمًا *** فِي زَحْمَةِ الْآلَامِ وَالْأَشْجَانِ
إِنَّ أَبْنَكَ الْمَصْفُودَ فِي أَغْلَالِهِ *** قَدْ سِيقَ نَحْوَ الْمَوْتِ غَيْرِ مُدَانِ
فَانْكُرْ حِكَايَاتِ بِأَيَّامِ الصِّبَا *** قَدْ قُلْتَهَا لِي عَنْ هَوَى الْأُوْطَانِ
وَإِذَا سَمِعْتَ نَحِيبَ أُمِّي فِي الدُّجُّي *** تَبَكِّي شَبَابًا ضَاعَ فِي الرَّيْعَانِ
وَتُكَبِّمُ الْحَسَرَاتِ فِي أَعْمَاقِهَا *** أَلَمَّا تُوَارِيهِ عَنِ الْجِيرَانِ
فَاطْلُبْ إِلَيْهَا الصَّفَحَ عَيْنِي إِنِّي *** لَا أُبْتَغِي مِنْهَا سُوِيِ الْغُفْرَانِ
ما زَالَ فِي سَمْعِي رَئِنُ حَدِيثَهَا *** وَمَقَالِهَا فِي رَحْمَةِ وَحَنَانِ
أَبْنَيْ: إِنِّي قدْ غَدَوْتُ عَلِيَّةً *** لَمْ يَبْقَ لِي جَلَّدٌ عَلَى الْأَحْزَانِ"
فَانْقُ فُؤَادِيَ فَرْحَةً بِالْبَحْثِ عَنْ *** بَنْتَ الْحَلَالِ، وَدَعْكَ مِنْ عِصْيَانِي"
كَانَتْ لَهَا أَمْبَيْةً رَيَّانَةً *** يَا حُسْنَ آمَالِ لَهَا وَأَمَانِي
وَالآنَ لَا أَدْرِي بِأَيِّ جَوَاحِ *** سَتَبِيتُ بَعْدِي أَمْ بِأَيِّ جِنَانِ؟!
هَذَا الَّذِي سَطَرَتُهُ لَكَ يَا أَبِي *** بَعْضُ الَّذِي يَجْرِي بِفِكْرِ عَانِ
لَكْنَ إِذَا انتَصَرَ الضَّيَاءُ وَمُزَّقَتْ *** بَيْدَ الْجُمُوعِ شَرِيعَةُ الْقُرْصَانِ
فَلَسَوْفَ يَذْكُرُنِي وَيُكْبِرُ هَمَّتِي *** مَنْ كَانَ فِي بَلْدِي حَلِيفَ هَوَانِ
وَإِلَى لِقاءِ تَحْتَ ظِلِّ عَدَالَةٍ *** قُفسِيَّةُ الْأَحْكَامِ وَالْمِيزَانِ

ملتقيات أحمد

المصادر: